لكى نخلق ذوقا فنيا عاما يجب الا نهبط بالفن الى مستوى العامة

كلمة للأستاذ زكى طليمات

أعدت وزارة الشؤون الاجتماعية مناظرة فى هذا الموضوع بمسرح حديقة الأزبكية ، وكان يناصر الرأى الدكتور محمد صلاح الدين بك ، والأستاذ يوسف حلمى المحامى ويعارضه الأستاذ يوسف بك وهبى والأستاذ زكى طليمات ونشر فيما يلى إحدى الكلمات التى استطعنا الحصول عليها .

سيداتى ؛ سادتى :

أظنكم توافقوننى على أنه من الأفسح لميدان القول المفيد ومن الأوضع للأمر فى نصابه ، ودفعا للحرج والتزمت فى فن جديد بمصر ، مابرح فى مراحل النشر والإذاعة ولم يصلب له عود وتستقيم له طريقة ، أن يكون عنوان مناظرتنا هذه ، غير العنوان الذى رسم لها على بطاقة الدعوة ، لأن مناظرتنا فى عنوانها المذكور ، تخرج على حدود كل مناقشة ومناظرة ، وشأنها فى هذا شأن المواضيع التى لاتحتمل التأويل ولا تتسع لاختلاف فى وجهات النظر . إ هل يصح أن نقيم مناظرة موضوعها "الشرك بالله" أو "حقوق البلاد وواجب التمسك بها" وما هو على غرار هذا ؟ ما أظن لأننا إذا أخذنا بالطرف الآخر مما جاء فى هذه المواضيع أى اذا أخذنا بنقيض ماجاء فى عنوانها ، تورطنا فى الخطأ المبين ، بعد مكابرة ومناقشة لا خير فيهما .

ولهذا أقول ، وما أقوله فى حدود عنوان محاضرتنا ، كما أنه لا شرك بالله أبدا ، ولا تفريط فى حقوق البلاد أبدا ، فلا اسفاف بالفن إلى مستوى العامة إذا أردنا أن نخلق ذوقا فنيا عاما .

لاقول عندى أظاهر به زعم الزاعم أن الهبوط بالفن بطريق تملق رغبات الجمهور الكبير ، ومداهنته ، واستغلال مزاجه السقيم ، أمر لازم لكى يقبل الجمهور على دور التمثيل ، لأننى فى مقدمة من يعلم أن المسرح فى أبعد غاياته يهدف إلى تنمية الذوق ، واستثارة باعث الجمال ، وأن الذوق إذا ارتقى وتهذب ، سمت نظرتنا إلى الحياة وتنزهت أقوالنا وأفعالنا عن الكثير من الصغار والعيب ، بل أنها لتسير فى رحاب الخلق الكريم ، أعلم هذا وأزيد ، أن من ينيل أمته درهما من الذوق السليم ، أفضل وأكثر مثوبة عند الله والناس ممن يمنحها قنطارا من العقل .

فما كان أجدر بمناظرتنا هذه أن يكون لها عنوان آخر مثل (التوفيق بين ما يقدم على المسرح المصرى وما يجب أن يقدم) أو مما هو فى نطاق هذا حتى يكون فى اختلاف آراء المتناظرين مجال أوسع للقول المفيد ، وحتى نهتدى إلى دستور تستهدى به الفرقة التمثيلية العاملة لتكون فى المنهاج السوى ، وهو أشد ما يرغب فيه ، كما اعتقد حضرة صاحب المعالى وزير الشؤون الاجتماعية الذى تفضل مشكورا بجعل المسرح المصرى موضوعا تتجادل فيه وتتشابك بالحجة والبرهان لتنتهى إلى ما فيه خيره وفلاحه .

وواجب الإنصاف يقضى بأن أقرر ما أظن أنه قد غاب على من وكلت إليه الوزارة أمر تنظيم موسمها الثقافى هذا ، مخالفته عنوان هذه المناظرة فى ما يجب أن يكون عليه ، لأنه رجل ذو ثقافة وبعد نظر وإنما يلوح لى أنه تعمد هذا الحرج بدافع حرص منه على أن يجعل قضية المسرح المصرى فى مناظرته هذه ، فى أفقها المثالى العالى ، وليقطع أحبولة كل بهلوان ، وتمويه كل مشعوذ ، وتطاول كل هزيل فى فنه . ويسد عليه منافذ العمل بعد أن يحسر عنه الستار ويكشفه على حقيقة حاله .

فعل هذا ليقول بلسان غيره — وهذا حذق أشهد له به — أن الفن ليس كسبا ماديا فحسب وأن المسرح إذا لم تكن له غاية تهذيبية ورسالة خلقية وأغراض تمتد إلى الفن الصحيح الذى ينمى الذوق ويهذبه ، فهو لغو وباطل ، وأن الشهرة التى تصيب القائمين عليه يجب أن تكون من شهرة المصلحين والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، لا من شهرة السفاحين الذين يرتدون لباس الشهرة ، أو المتأنقين فى سلب الأموال .

كل هذا جميل من صديق الأستاذ أنور أحمد ولكنه ليس بليغا ، وكلكم تعلمون ماهية البلاغة فى القول والعمل ، ولعل عذر الأستاذ أنور فى هذا وأرجوه المعذرة أنه من عشاق المثل العليا ، والهيام بالمثل العليا ليس بالأمر المستغرب وهو من مميزات هذا العصر ، عصر الانتقال فى حياتنا المصرية فنحن ننشد هذه المثل بألسنتنا وقلوبنا فى كل ناحية من نواحى حياتنا حتى فى طريقة أكل الفول المدمس ! !

والمثل العليا هى إرادة ما هو غير كائن إلى ما يصح أن يكون ، ونحن ننشدها ، إذ يصبح لا يرضينا ما هو كائن ، ولكن لا يخفى أن بين ما هو كائن بحكم البيئة وعوامل الاجتماع وبما هو مفروض بحكم مقدار التطور وإيقاع الزمان ، وبين ما يجب أن يكون عليه الأمر فى أفقه العالى ، برزخا مترامى الأطراف لا تكفى فيه الرغبة وقوة الذراع لاجتيازه . ولست بما أقول أحاول أن أجعل الطموح يتطامن ، والأمل تخبو جذوته . وتوخى تحسين الحال يفقد بعينه من القوة ، وإنما أقول أن نأخذ بالاعتدال فى الأمور وأن نحاول بقدر ما بين أيدينا من وسائل وعناصر ، بل علينا أن نعتصر كل هذه العناصر وأن نستخرج أكبر الفائدة مما بين

أيدينا من وسائل ، ولكن فى رفق لا ينكسر معه الإناء الذى نريد أن نشرب كل ما فيه من ماء، وفى هوادة حتى لا نشرق ونغص بالماء، ولا ضير أن تكون المثل العليا لنا هاديا ودليلا .

المسرح فى مصر حدث جديد عمره بيننا ثمانون عاما فنحن من أدوار حياته ومراحل تطوره مازلنا فى دور التبشير ومرحلة النشر والاذاعة والتعريف . المسرح عندنا مازال فى دور التأقلم ولم يضبح بعد أصيلا فى أدبنا وفنوننا إلا بأعراق واهنة . أقلام كتابنا ، إلا القليل منها بالطبع ولله الحمد، ما زالت تحاول متعثرة فى كتابة المسرحية، والممثلون يبذلون جهدهم، والجمهور فى أكثريته مازال يغشى دور التمثيل لمجرد التسلية ، أو ليقال عنه أنه يحضر التمثيل ولم يصبح التمثيل له بعد غذاء روح وحاجة وضرورة .

وفن التمثيل عناصره المؤلف والممثل والجمهور ، بل أعتقد أن الجمهور أهم عناصره لأن من الجمهور يخرج المؤلف ، والمثل والجمهور هو الذى يغذى المسارح ، وهو الذى يفرض إرادته بطريق غير مباشر على أهل التمثيل ، بل أن الجمهور هو المسرح ، والعكس بالعكس ولهذا قالوا : " أن المسرح مرآة الشعب " وأقول أنا كما تكونوا يكن مسرحكم .

الجمهور وما يريد مشاهدته فوق المسرح وما يجب أن يقدمه أصحاب الفرق اليه من غير أسفاف ليكونوا فى نطاق فهم هو قضية المسرح اليوم ، وإذا قلت الجمهور ، فانى استثنى خاصته وهم فئات غير كثيرة ولهم الحظ الموفور من الثقافة والعلم .

أقول إن جمهورنا المسرحى الكبير لم يتشكل بعد ، أى لم يستقر فى مستوى متقارب الطبقات من حيث التعليم والتثقيف ، ولا حاجة بى إلى ذكر النسبة المئوية للمتعلمين وغير الأميين ، فهو لذلك يتفاوت تفاوتا كبيرا من حيث منازله فى تذوق الرواية المسرحية، ولا يمكن والحال ما أجملت وصفها، أن نقدم له مسرحيات لها كلها مستوى واحد أو متقارب من الفن والأدب .

إذن كيف يعالج مدير الفرقة هذا الموقف ؟

إذا قدم له ألوانا من المسرحية الرفيعة أدبا وفنا ، انصرف الجمهور عن مشاهدتها.. ، وله العذر لأن حضوره التمثيل ليس إجباريا والإنسان لا يجبر على تناول طعام تعافه نفسه دائما ، والتمثيل طعام روح ، وإذا قل إقبال الجمهور قلت موارد المال الذى هو عصب كل شىء ، وعلى فرض أن هناك هيئة كبيرة تمد صاحب الفرقة بالمال الكثير ولا يهمها أمر الخسارة، فانى أقول فى هذا الصدد أنه لا خير من قيام هذه الفرقة، لأن المسرح الذى لا تغشاه الجماهير غير جدير بالبقاء، ومثله فى هذا مثل المسجد الذى لا يغشاه المصلون .

وإذا هبط مدير هذه الفرقة فاستجاب إلى الجمهور فى كل رغباته ، وأسف إلى حماقاته فقد خرج من مصاف الفنانين والمصلحين وأصبح فى عداد التجار والمتكسبين ، وتحول مسرحه إلى ما لا أسميه .

على ضوء هذا تبدو واضحة الخطة المثلى، وهى الأخذ بالاعتدال فى ما نقدمه إلى الجمهور من روايات رفيعة وغير رفيعة ، والله يحب الرفق بالأمور ، والله جلت قدرته أنزل كتابه المبين فى أسلوب بليغ يفهمه كل الناس .

و إذا قلت الرفق فلست أقول الإسفاف ، و إنما أقول مطاوعة الجمهور فى حذر و يقظة والنزول اليه بقدر، نشوقه بالسهل اللين لينصت الينا و يقبل علينا لنفرغ بعد ذلك فى واعيته ما نريد ، نتزل اليه درجات لنأخذ بيده فاذا ما قبضنا عليها جذبناه نحونا وارتقينا به درجة فدرجة وهكذا دواليك .

إن الذوق الذى ننشد تكوينه لا يصب صبا فى فم الجمهور و إنما هو نتيجة أن يفهم ما نريد قوله له وأن يستسيغه لكى يهضمه وليسرى فى روحه عافية كما يسرى الغذاء فى الجسم. واذا لم يفهم الجمهور ما نقدمه له و يتدرج فى فهمه هذا فلن يستفيد شيئا مما نقدمه اليه .

والفارق بين الإسفاف أو الهبوط ، والنزول الى الجمهور بقدر ورأى ، كالفارق بين الخنوع والتواضع ، والرق والطاعة ، فارق واضح المعالم والحدود، أن الذى يسف و يهبط لا يستطيع أن يرتفع إذ ليس للاسفاف غاية غير الاسفاف ، فى حين أن من ينزل بقدر وهو يعلم أنه ينزل لغاية يستطيع أن يصعد ، وشأنه فى هذا شأن المتواضع مهما كبر تواضعه فلن يقبل أن يخنع أبدا، وشأن المطيع، مهما أخذ بأسباب الطاعة فلن يقبل أن تنزله طاعته إلى منزلة العبيد والأرقاء .

والنزول الى الجمهور ، أو بالأحرى أن لانتعالى على الجمهور بما نريد قوله بطريق المسرح ليس بالأمر الهين ، بل هو فن كبير لأن القدم فيه سرعان ما تنزلق نحو التهريج اذا لم يكن هناك علم و يقظة ؛ والفن غير التهريج ؛ وفى استطاعة الممثل أو المخرج أن يعمل فى مسرحية أدبية رفيعة فيحيلها شعوذه وتهريجا لأنه لا يملك فنا ، وفاقد الشىء لا يعطيه كما أن فى وسعه أن يحيل المسرحية الضئيلة الحظ من الفن عملا فنيا كبيرا اذا عالجها معالجة فنية صحيحة ؛ والعبرة فى كل عمل فنى بالمعالجة وليس بالموضوع ؛ وما من مسرحية مهما ضؤل حظها من خصب الموضوع ، ومهما تنكرت وسائلها التى لها ما ورائها ، إلا وهى تهدف إلى الفضيلة .

وأختم كلمتى فأقول أن فى هذا الفن الكبير ، فن النزول الى الجمهور بغير اسفاف ، ثم الصعود به من غير أن ينزل به الدوار ، فليتبارى أصحاب الفرق العاملة ولنتبادل نحن المتناظرون انخاب الجدل ، لأنه فن له صراتب ومنازل وفيه مزالق وفيه مهاوى" .

زكى طليمات

مدير المعهد العالى لفن التمثيل العربى